# صفحات من تاريخ الاستشراق

## - ١ -

### ماذا يقصد بالشرق ؟

إن كلمة « الشرق » رغم كثرة استعمالها منذ ألفي سنة على الأقل ، ليس لها مفهوم واضح ، محدد ، ثابت . فهي تفيد أحياناً مجموعة معينة من البلاد في آسيا الغربية وافريقيا الشمالية ؛ وهي أحياناً أخرى تشمل ، في نظر الأوربيين ، جميع أقطار آسيا ما عدا ( سيبريا ) . على أنه كثيراً ما يطلق على ( الصين ) و ( اليابان ) اسم خاص هو « الشرق الأقصى » بينما هناك اختلاف في تحديد البلاد التي يتضمنها مفهوم « الشرق الأوسط » و « الشرق الأدنى » .

وكلمة « الشرق » في الأصل من المصطلحات الفلكية . وهي لا تدل إلا على الجهة التي تشرق منها الشمس . فكل بقعة من الأرض هي شرق وغرب في وقت واحد حسبما يكون موقع الشخص الذي يتحدث عن هذه البقعة ، أما وصف قارة ( آسيا ) خاصة بأنها الشرق وقارة ( أوربا ) بأنها الغرب فيرجع الى زمن اليونان ، عندما كان الناس يعتقدون بأن الأرض مسطحة وأن القسم المعمور منها محدود .

واذا تأملنا في كتاب ( هيرودوت ) تبين لنا أن مفهومي الشرق ( آسيا ) والغرب ( أوربا ) قد برزا لأول مرة خلال الحرب الفارسية . فإن الاصطدام بالفرس قد خلق الوعي الذاتي لدى اليونانيين الذين كانوا ينظرون الى جميع الشعوب الأخرى كبرابرة ، رغم اعتراف كتابهم بأن بعض هذه الشعوب ، كالمصريين والبابليين ، كانوا يتقدمونهم في الحضارة .

وكانت ( أوربا ) في نظر اليونانيين تقتصر على العالم الهيليني ( أي بلاد اليونان وشواطيء آسيا الصغرى وصقلية وجنوب ايطاليا ) ، بينما تعتبر بلاد السكيت والجرمن والسلت والاسبان من عالم البرابرة .

وفي عهد الرومان ، عندما كانت ( روما ) تعتبر مركز المعمورة ، أطلقت كلمة ( الشرق ) على البلاد الواقعة في الجهة الشرقية من ايطاليا . إلا أن الرومان كانوا في بعض الحالات يقصدون بالشرق مملكة فارس القديمة ، وفي ظروف أخرى الامبراطورية المكدونية . ثم اكتسب اصطلاح ( الشرق ) مضموناً سياسياً محدوداً في عهد ( فيليب العربي ) ، إذ سمى هذا الامبراطور أخاه ( يوليوس بريسقوس ) حاكماً للشرق ( Rector Orientis ) . وكانت كلمة الشرق هنا تعني وحدة ادارية تشمل خمس ولايات من الامبراطورية الرومانية هي :

(١) الشرق بالمعنى الضيق ( Oriens ) ويتألف من مقاطعات ( ليبيا ) ومصر و ( العربية ) وفلسطين وفينيقية وسورية والفرات و ( كيليكيا ) وقبرص وما بين النهرين .

(٢) ولاية ( بونتيكا ) ( الجسر ) الممتدة من قبادوسيا حتى أرمينية .

(٣) ( آسيانا ) من فريجيا حتى الدردنيل .

(٤) ( تراقيا ) .

(٥) ( موزيا ) من رومانيا حتى اليونان وكريد .

وكانت عاصمة الولايات الشرقية كلها هي أنطاكية ، حيث كان يقيم الحاكم العام ( Praefectus praetoris ) .

وقد ازداد الاختلاف السياسي بين الشرق والغرب منذ أن انقسمت الامبراطورية الرومانية في سنة (٣٩٥) الى الامبراطورية الغربية والامبراطورية الشرقية ( التي كانت تسمى أيضاً الشرق Oriens ) . وبالاضافة الى ذلك نشأ في العصور التالية الخلاف المذهبي بين البابوية في روما وبين البطريركية

في القسطنطينية ، الذي أدى الى الانفصال والى قيام الكنيسة الشرقية ( الأرثوذكسية ) .

ثم تبدل مفهوم ( الشرق ) بعد ظهور الإسلام وتأسيس الامبراطورية العربية ، فأصبح يطلق بوجه عام على البلاد الإسلامية . وفي أثناء الحروب الصليبية صار الدين الإسلامي رمزاً للشرق والديانة المسيحية رمزاً للغرب .

ومرة أخرى حصل تحوير طفيف في مضمون كلمة ( الشرق ) بعد قيام الأتراك العثمانيين واتساع فتوحاتهم في أوربة ، فأصبح الشرق في نظر الأوربيين مرادفاً للدولة العثمانية . ولذلك أطلقوا اسم « المسألة الشرقية » على مجموعة المشاكل التي نجمت عن الاصطدام بين العثمانيين والأوربيين وعن التضارب في سياسة الدول الأوربية تجاه الامبراطورية العثمانية وتقرير مصيرها بعد ما ظهر عليها الانحطاط والتفسخ والتفتت . تبعاً لهذه التقلبات التاريخية كان يتغير مدلول ( الشرق ) و ( الغرب ) ويختلف امتدادها الجغرافي . وبينما تقدمت حدود أوربة في عهد الإسكندر المكدوني حتى حوض ( السند ) وتوقفت في عهد الرومان عند حوض الفرات ، إذا بها تتقهقر بعد ظهور الإسلام وفتوحاته وترجع حتى أبواب ( فيينا ) سنة ١٥٢٩ في عهد العثمانيين .

يتبين من ذلك أن كلمة ( الشرق ) عبارة عن اصطلاح سياسي - جغرافي - تاريخي يشير إلى النزاع بين الفرس واليونان في القديم ، وبين الإسلام والمسيحية في القرون الوسطى ، وإلى الاصطدام بين الدولة العثمانية والدول الأوربية في العصور الحديثة ، كما يتضمن شعوراً بالفروق في العقلية والثقافة والحضارة بين شعوب أوربا من جهة وشعوب آسيا وافريقية من جهة ثانية .

بسبب هذه النظرة الإجمالية السطحية غفل الكثيرون عن الفروق والتناقضات بين الشعوب الأوربية نفسها فشاعت مصطلحات مثل ( الغرب ) أو ( الحضارة الغربية ) أو ( العقلية الغربية ) . فهل يقصد بالغرب مثلاً القارة الأوربية

كلها بما في ذلك البلقان وروسيا وسائر البلاد السلافية أم بعض أجزاء أوربا فقط كفرنسا وانكلترا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا واسكنديناڤيا ؟

وأخيراً ألم نشاهد في هذه السنوات تطوراً جديداً لمفهومي ( الشرق ) و ( الغرب ) إذ أصبحا يرمزان إلى الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية من جهة ثم إلى الولايات الأمريكية المتحدة ودول الحلف الأطلسي من جهة ثانية . فكلمة ( الشرق ) في الصحف والخطب السياسية إنما تعني اليوم الاتحاد السوفياتي وحلفاءه . أما البلاد التي كانت تطلق عليها هذه الكلمة في السابق فلا بد من تحديدها باصطلاحات خاصة مثل الشرق الأدنى أو الشرق الأوسط أو الشرق الأقصى أو جنوب شرقي آسيا أو الأقطار العربية أو العالم الإسلامي .

هكذا لا يمكننا ادراك المعاني التي تتضمنها كلمة ( الشرق ) إلا إذا لاحظنا تطور العلاقات بين الشعوب الأوربية من جهة وشعوب آسيا وافريقيا من جهة ثانية . بذلك تتضح لنا أيضاً العوامل التي أدت إلى نشأة « الاستشراق » واهتمام الأمم الغربية بهذه الدراسات .

## العلاقة بين الشرق والغرب :

ان العلاقات بين الشرق والغرب قديمة ومتشابكة جدا . فمنذ فجر التاريخ كانت شعوب القارات الثلاث : آسيا وافريقيا وأوربا ـ وهي التي كان يتألف منها العالم المعمور ـ يقتبس بعضها عن بعض ، ويؤثر أحدها في الآخر .

ومن المعلوم أن قدماء اليونان قد أخذوا العناصر الأولى في حضارتهم عن المصريين والبابليين والفينيقيين ، وظلوا مدة عصور طويلة يعتبرون أنفسهم تلامذة لهذه الأمم الشرقية التي تقدمتهم في الحضارة والثقافة .

ولما نشبت الحروب الفارسية استولى الفزع على اليونانيين فقام شعراؤهم وكتابهم يلهبون المشاعر والعواطف في سبيل الدفاع عن كيانهم القومي ،

واندفعوا ، في حماستهم الوطنية يصفون الفرس والشعوب الأخرى الخاضعة للامبراطورية الفارسية بالهمجية ويسمونهم « برابرة » ولا شك في أن مؤلفات هؤلاء الشعراء والكتاب ، التي أصبحت فيا بعد أساساً لثقافة الغرب ، كان لها بعض التأثير في تشويه صورة الشرق لدى الغربيين .

وعلى أثر فتوحات الاسكندر المكدوني ، الذي حاول توطيد حكمه بالتقريب بين الشرقيين والغربيين . انتشرت الثقافة اليونانية في آسيا وإفريقيا ، حيث امتزجت بالعقائد الدينية والنزعات الصوفية . ومن هذا التمازج نشأت الحضارة « الهلينستية » ذات الصبغة العالمية .

وكان يبدو ، بعد قيام الامبراطورية الرومانية ، أن الغرب قد فرض سيطرته على الشرق . ولكن سرعان ما تجدد الصراع بانقسام الامبراطورية الرومانية الى شرقية وغربية ، وباحتدام الاختلافات المذهبية واستئناف الحروب بين البزنطيين والساسانيين .

ثم جاء الإسلام . فتولى العرب قيادة الشرق وتوحيد كلمته . والمؤرخون الغربيون لا يجدون تفسيراً للسرعة التي فتح بها العرب سورية ومصر ( بين سنة ٦٣٤ و ٦٤٣ ) الا رغبة السكان السريان والأقباط « الشرقيين » في التخلص من الاضطهاد البزنطي « الغربي » . ولم يعترف الغربيون بأن الإسلام إنما أراد إتمام ما بدأته الديانات السماوية السابقة ، ونسوا أن المسيحية نفسها كانت قد جاءت إليهم من الشرق ، فاعتبروا الدين الجديد مظهراً للثورة الكبرى تقوم بها آسيا ضد سيطرة اليونان والرومان ، وصاروا منذ ذلك الوقت يصورون الاختلاف بين الشرق والغرب كصراع بين الإسلام والمسيحية . هكذا يصفون صمود القسطنطينية لحصار العرب ( سنة ٧١٧ — ٧١٨ ) ، أو انتصار ( شارل مارتيل ) في بواتيه ( سنة ٧٣٢ ) على أنهما عمليتا انقاذ للحضارة الغربية ــ المسيحية .

وقد بلغ النزاع بين الطرفين ذروته أثناء الحملات الصليبية التي قام بها الغرب فاستخدم العقيدة الدينية ستاراً ووسيلة لتحقيق مطامعه الاستعمارية . ولكن نجاح الصليبيين لم يستمر طويلاً واستطاع المسلمون أن يسترجعوا بعد مائتي سنة كل البلاد التي فقدوها . وعلى الرغم مما اتصفت به الحملات الصليبية من تعصب وحقد وما رافقها من أعمال العنف والقسوة فقد لاحظ الغربيون ، بعد الاحتكاك المباشر ، أن الشرقيين يفوقونهم في جميع نواحي الحضارة . وكان طبيعياً أن يمتزج الخوف والبغض لديهم بشيء من الاعجاب ثم بالرغبة في المعرفة والميل إلى الاقتباس . إلا ان الحضارة العربية ـ الإسلامية كان لها تأثير أعمق في تطور الغرب عن طريقين آخرين هما : الأندلس وصقلية .

فقد كان ملوك النورمانديين في صقلية من ( روجر ) الأول إلى ( فريدريك ) الثاني إلى (مانفريد ) يستعينون بالموظفين العرب في إدارة البلاد وتنظيم الشرطة والمالية ، كما انهم جمعوا حولهم كثيرين من علماء المسلمين ، واعتنوا بترجمة المؤلفات العربية في مختلف العلوم والفنون وتدريسها في الجامعات التي أسسوها على نمط المدارس الإسلامية .

وكانت طليطلة في الأندلس من أكبر مراكز العلم عند العرب المسلمين ، فلما سقطت في أيدي الاسبان ( سنة ١٠٨٥ ) أسرع اليها طلاب العلم من كل أنحاء أوربا ، وقام رئيس أساقفتها ( ريموند ) بين ( ١١٣٠ – ١١٥٠ ) فأسس فيهـــا المدرسة المشهورة للترجمة التي دامت حتى القرن الثالث عشر وساعدت على نقل أهم كتب الطب والفلك والطبيعة والفلسفة من العربية إلى اللاتينية . ومن اسبانيا انتقلت حركة الترجمة إلى إيطاليا ، حيث استمرت حتى منتصف القرن السادس عشر . وإذا ظل بعض العلماء في النمسا وألمانيا وفرنسا يعتمدون على مؤلفات الأطباء والصيادلة العرب في القرن السابع عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر فلا شك في أن الأوربيين لم يعودوا يشعرون

بالحاجة إلى التعليم من العرب بعد اختراع الطباعة وبعد اكتشافات (كوبرنيكوس) و (باراسلسوس) و (فيزاليوس) .

ومن جهة أخرى لاحظ رجال الكنيسة الغربيون منذ الحملات الصليبية أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً واضحاً عن العقيدة الإسلامية وأنه لا بد لهم من ترجمة القرآن والأحاديث النبوية وأقوال العلماء المسلمين ليستطيعوا الرد عليها ومحاولة نقضها والحيلولة دون تأثيرها في نفوس شعوبهم . لذلك نرى المجمع الديني الذي عقد في (فيينا) سنة (١٣١١ - ١٣١٢) يدعو العلماء المسيحيين إلى الرد على آراء الفلاسفة المسلمين .

هكذا بدأت الدراسات الشرقية على أساس غير صحيح ، لأنها كانت منذ بادىء الأمر خاضعة لفكرة الجدل الديني .

لم تنقض مدة طويلة على نهاية الحملات الصليبية حتى تجددت الحروب بين الشرق والغرب بعد قيام الدولة العثمانية التي استطاعت أن تفتح القسطنطينية ، والتي ظلت جيوشها تتوغل في قلب البلاد الأوربية حتى القرن السادس عشر . وكانت اوربا تعتبر الأتراك العثمانيين ممثلين لروح آسيا ولقوة الإسلام . وكان طبيعياً أن ينقلب الخوف والفزع من الأتراك إلى حقد على الإسلام وكره لآسيا ، فنرى الكتاب الأوربيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر يسمون محمداً (ﷺ) بنبي الأتراك ويسعون إلى مكافحة العثمانيين بالتهجم على الرسول والطعن في الإسلام .

ولكن في الوقت ذاته أخذ الأوربيون يفكرون في مهاجمة العالم الإسلامي من الخلف بالدوران حول افريقيا عن طريق البحر . ولا ننس ان فشل الحملات الصليبية ثم احتكار تجارة الهند من قبل المماليك كانا من العوامل التي دفعت الأوربيين الى البحث عن طريق آخر إلى الهند والشرق الأقصى ، فبدأت بذلك الرحلات والاكتشافات البحرية الكبيرة في أوائل القرن

السادس عشر . وقد جاء في البيان الذي أصدره القائد البحري البرتغالي (البوكرك ) في ( مالاقا ) بالهند الصينية ، أن البرتغاليين بسيطرتهم على تجارة الأفاويه إنما يطمعون في إضعاف قوة المسلمين . وكان المبشرون البرتغاليون يقومون بحملة صليبية ضد الإسلام . وكانت الظروف في الهند خاصة ملائمة إذ ذاك للاستعمار البرتغالي . ولكن بعد قيام ملوك المغول الكبار واعادة توحيد المملكة الإسلامية في الهند تبدلت الحالة هناك في القرن السابع عشر . وانتهز الهولنديون والانكليز الفرصة ليحلوا مكان البرتغاليين فأخذوا يساعدون الهنود ضد هؤلاء. واتبعت الشركتان الهندية ـ الهولندية ، والهندية ـ الانكليزية سياسة سلمية ، تجارية بحتة في بادىء الأمر ، والتزمتا الحياد التام تجاه سكان البلاد في المسائل الدينية كما انهما كانتا ، تبعاً لعقيدتهما البروتستانتية ، تكافحان من جهة ثانيـــة الجمعيات الكاثوليكية التي كانت تقوم بالدعوة التبشيرية وتثير نفرة السكان .

ومنذ انكسار الأتراك العثمانيين في معركة (لبانتو ) البحرية ( عام ١٥٧١ ) أخذ خوف الأوربيين منهم يخف . وما كاد ينتهي القرن السابع عشر حتى تلاشى هذا الخوف بعد أن لاحظ الأوربيون اضطراب أحوال الدولة العثمانية وتدهور قوتها ، فاتجهت أطماعهم إلى سلب ممتلكاتها . وكانت أوربا في ذلك العهد تتقدم في طريق القوة العسكرية والازدهار الاقتصادي ، وأخذت تشعر بالحاجة إلى أسواق لتصريف منتوجاتها الصناعية . وبذلك بدأ التوسع الاستعماري واستيلاء الغربيين على آسيا وإفريقيا ، وتشابكت المصالح التجارية مع المطامع السياسية . وليس تاريخ هذا التوسع سوى سلسلة من أعمال العنف والخداع والخيانة ونقض العهود والمساومات الحقيرة والمؤامرات الدنيئة .

وكانت القيـــادة قد انتقلت في القرن السابع عشر من البرتغاليين إلى الهولنديين . ثم برزت انكلترا وفرنسا اللتان استمر التنافس بينهما خلال القرن الثامن عشر وانتهى الأمر بسيطرة انكلترا في القرن التاسع عشر . وفي

أواخر ذلك العصر أخذت ألمانيـا وايطاليا أيضاً تشتركان في التوسع الاستعماري بينما ظلت روسيا القيصرية منذ القرن الثامن عشر تطمع في ميراث الدولة العثمانية وتعمل على بسط سيطرتها ونفوذها في البلقـان والقفقاس وآسيا الوسطى .

وخلال جميع هذه المراحل لعب المستشرقون دوراً هاماً في التمهيد للتوسع الاستعماري وتوطيد سيطرة الغربيين في الشرق .

## متى بدأ الاستشراق ؟

يقول بعض المستشرقين إن أول مدرسة للدراسات الشرقية في اوربا هي التي أسست في طليطلة سنة ( ١٢٥٠ ) ، وكانت تدرس فيها اللغة العربية والعبرية لإعداد رجال يستطيعون التبشير بين المسلمين واليهود .

ومن أشهر المبشرين الذين تخرجوا من هذه المدرسة ( رايموندوس لوللوس ) ( Raymundus Lullus ) حوالي سنة ( ١٣١٥ ) . وكان ( لوللوس ) يتقن اللغة العربية ويعرف المؤلفين العرب معرفة جيده ربما لا يضاهيه فيها أحد من الغربيين حتى العصور الحديثة . فقد درس القرآن والحديث واطلع على كتب المتكلمين والفلاسفة . ونراه في مؤلفاته الجدلية للرد على المسلمين يستشهد بأقوال الفارابي وابن رشد وعلى الأخص الغزالي الذي اقتبس قسماً كبيراً من كتابه « تهافت الفلاسفة » .

ويبدو أنه كان هناك شعور عام بالحاجة إلى معرفة اللغات الشرقية والغربية . ومما يؤيد ذلك الرسالة التي نشرها الكاتب الفرنسي ( بيير دوبوا Pierre Dubois ) في سنة ١٣٠٦ بعنوان « استرجاع الأراضي المقدسة » فقد رسم فيها منهاجاً لاستعمار الشرق من قبل شعوب أوربا المسيحية بقيادة ملوك فرنسا . ويقتضي هذا المنهاج تأسيس مدارس لتعليم اللغات لا تقتصر

على اعداد ما تستلزمه هذه الخطة السياسية من موظفين وضباط وتراجمة ومفاوضين ومبشرين وأطباء ، بل تهيء كذلك الفتيات الأوربيات اللواتي يجب تزويجهن بالزعماء الشرقيين للقيام بالمهمة الملقاة على عواتقهن .

وفي سنة ( ١٣١١ – ١٣١٢ ) تقدم ( رايموندوس لوللوس ) إلى المجمع الديني الذي عقد في ( فيينا ) باقتراح يطلب فيه :

١ – تأسيس معاهد لتدريس مختلف اللغات واعداد رجال يبشرون بالكتاب المقدس بين جميع الشعوب ؟

٢ – تكوين منظمة دينية من الفرسان تسعى إلى استرداد البلاد المقدسة .

٣ – العهدة إلى العلماء بتأليف الكتب للرد على العقائد المنافية للكاثوليكية .

وفي الواقع قرر مجمع ( فيينا ) تأسيس كرسيين لتعليم اللغات العربية والعبرية والكلدانية واليونانية في كل من جامعات ( روما ) و ( بولونيا ) و ( باريس ) و ( اكسفورد ) و ( سلمنكا ) . على أن هذه الكراسي ظلت شاغرة مدة طويلة من الزمن لفقدان المدرسين الأكفياء . وقد انصرفت الجهود حتى القرن السادس عشر إلى الترجمة عن العربية التي كان يتولاها في الغالب اليهود الاسبانيون . واتجهت العناية هنا إلى نقل الكتب الطبية والفلكية والفلسفية إلى اللغة اللاتينية والاطلاع على محتوياتها والاستفادة منها ، فلم يهتم الرأي العام بدراسة الشرق ذاته .

ومن جهة أخرى فإن فشل محاولات التبشير لم يكن من شأنه أن يشجع رجال الكهنوت على دراسة اللغات والديانات الأجنبية . لذلك لم تنشط الدراسات الشرقية إلا بعد القرن السادس عشر بتأثير عوامل عديدة .

( للبحث صلة ) محمد كامل عياد